العلاقات السياسية بين مملكة أرمينية الصغرى والكيانات الإسلامية المجاورة (*)

أ . م . د . علاء محمود قداوي (**)

الملخص

تتناول هذه الدراسة العلاقات السياسية بين مملكة أرمينية الصغرى والقوى الإسلامية المجاورة، وفيها أشرنا إلى الظروف السياسية التي كانت في أرمينيا الكبرى في النصف الثاني من القرن الخامس من الهجرة/ الحادي عشر الميلادي، والتي كانت وراء هجرة أعداد كبيرة من الأرمن من موطنهم الأصلي إلى قيليقيا في الجنوب الشرقي من آسيا الصغرى، التي أسسوا فيها إمارتهم التي أطلق عليها اسم (مملكة أرمينية الصغرى)، والتي ارتبطت بحكم موقعها الجغرافي الموصل بين بلاد الشام والجزيرة، وبقية أنحاء آسيا الصغرى بعلاقات سياسية مع القوى الإسلامية المجاورة كالسلاجقة والدانشمنديين والاراتقة والزنكيين، وكان للأطراف الأخرى المجاورة كالبيزنطيين والصليبيين دوراً في تحديد هذه العلاقة التي كانت غالباً عدائية إذ ما استثنينا فترات اضطر فيها بعض الأمراء الأرمن على التحالف مع بعض القوى الإسلامية لمواجهة الأطماع الشخصية لبعض أمراء الصليبيين من

(*) بحث مستل من رسالة الماجستير الموسومة بـ (مملكة أرمينيا الصغرى/ دراسة في العلاقات السياسية مع القوى المجاورة 463-776هـ).

(**) قسم التاريخ _ كلية التربية / جامعة الموصل.

اجل الاستحواذ على قيليقيا أو لتمكينهم من خصومهم من أبناء جلدتهم للوصول إلى سدة الحكم.

يعود تكوين مملكة أرمينية الصغرى إلى التطورات السياسية التي شهدتها أرمينيا الكبرى [1] – الموطن الأصلي للأرمن – في النصف الثاني من القرن الخامس من الهجرة/ الحادي عشر الميلادي، التي انقسمت فيها مملكتهم إلى ست ممالك عاش أمراؤها في صراع وتنافس فيما بينهم من اجل التوسع كل على حساب الأخرى، مما جعل البلاد تعيش حالة من الفوضى والاضطراب [2]، وهذا ما شجع القوى الخارجية وخاصة البيزنطيين الذين أرادوا السيطرة على هذه الممالك لتامين حدود بلادهم من خطر الأتراك السلاجقة، وبدأ ذلك في زمن الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس الثاني سنة (356هـ/ 965م) وواصل خليفته الإمبراطور باسيل الثاني، ومن جاء بعده سياسة الضم جزءاً بعد جزء على الرغم من غارات السلاجقة المتكررة[3].

(1) أرمينيا الكبرى: تحد من جهة الشمال إقليم بلاد الكرج (جورجيا)، ومن جهة الغرب إقليم بلاد الروم، ومن جهة الجنوب إقليم الجزيرة الفراتية، ومن الشرق اقليم اذربيجان. كي ليسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، نقله إلى العربية: بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد: 1954م)، الخارطة التي تقابل، ص 114؛ ل. أ. استار جيان، تاريخ الأمة الأرمنية (الوصل: 1951م)، ص 46.

(2) يوسف عزت، تاريخ القوقاز (استانبول: 1912م)، ص 20؛ استار جيان، المرجع نفسه، ص 46؛ سترك، مادة أرمينيا: دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية): 1/ 647.

(3) ستيفن رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني (بيروت: 1967م) 1/ 94؛ David Marshall Lang, Armenia Cradle Of Civiliztion (London, 1970), p. 200.

كانت مملكة سنكريم ومملكة قرس واني آخر الممالك الست التي هوت على أيدي البيزنطيين [4]، فقد اضطر الملك سنكريم الأرمني بالضغط البيزنطي إلى التنازل عن مملكته في سنة 412هـ/ 1021م للإمبراطور البيزنطي مقابل منحه مدينة سيواس وتوابعها على امتداد منابع نهر الفرات العليا في آسيا الصغرى، كما تنازل صاحب قرس واني اللذان يحملان اسم جاجيك عن ممتلكاتهما للبيزنطيين في سنة 437هـ/ 1045م و 457هـ/1064م مقابل منحهم أراضي في كبدوكيا الواقعة في آسيا الصغرى، وبموجب هذا التنازل هاجر عدد كبير من الأرمن إلى الأراضي الجديدة في آسيا الصغرى[5].

ويعد النصر الحاسم للسلاجقة والبيزنطيين في معركة ملاذ كرد [6] سنة 463هـ/ 1071م وما صاحبها من تراجع نفوذ البيزنطيين في أجزاء واسعة من آسيا الصغرى[7]، غدت كبدوكيا واقعة تحت تأثير التهديد المباشر للسلاجقة، ولحماية

---

(4) علية عبدالسميع الجنزوري، إمارة الرها الصليبية (القاهرة: 1975م)، ص 36.

(5) الجنزوري، إمارة الرها، ص 36؛ فتحي سالم اللهيبي، مملكة جورجيا دراسة في العلاقات السياسية (أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى عمادة كلية الآداب- جامعة الموصل: 2005)، ص 70.

(6) ملاذ كرد: بلدة مشهورة بين خلاط وبلاد الروم وتقع في أرمينيا الكبرى. ينظر: صفي الدين بن عبد المؤمن بن عبدالحق، مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد النجاوي (بيروت: 1955م): 3/ 1314.

(7) عماد الدين محمد بن حامد الأصفهاني، تاريخ دولة ال سلجوق، ط 3 (بيروت: 1980م)، ص 43؛ عبدالقادر اليوسف، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر (بيروت: 1969م)، ص 22؛

Kenneth M. Setton, A History of the Crusades (University of Bensylvania: no. D.): 2/632: George ostrogorsky, History of the Byzantine State (Oxford: 1968), p. 344.

أنفسهم اضطر الأرمن إلى الانتقال إلى منطقة قيليقيا للاحتماء بجبالها [8]، وأسسوا فيها خمس إمارات صغيرة اختزلت بعد صراعات سياسية إلى إمارتين هما الروبينية والهيثومية [9] اللتان توحدتا فيما بعد باسم مملكة أرمينية الصغرى في قيليقيا وذلك في سنة 596هـ/ 1199م[10]، وقيليقيا إقليم يقع في القسم الجنوبي الشرقي من آسيا الصغرى بين جبال طوروس والبحر المتوسط، ومن اشهر مدنه طرسوس ومرسين واياس والمصيصة وعينتاب وزيتون وهاجين وسيس وادنة وانطاليا وبورسان وسلوقيا[11].

تعددت تسمية هذه المملكة في مصادرنا العربية الإسلامية، فضلاً عن التسمية الأولى نجد تسميات أخرى، منها اسم بلاد ابن لاون نسبة إلى ملكهم ليفون، وليفون اسم تسمى به سبعة ملوك من أرمن، كما سميت بمملكة بلاد سيس نسبة إلى عاصمتهم سيس، التي تعد من أكبر المدن الأرمنية، وسميت كذلك ببلاد التكفور، والتكفور لفظة أرمينية معناها الملك المتوج أطلقه الأرمن على كل من جلس على عرش المملكة، وعلى الرغم من تعدد التسميات، إلا ان جميعها يقصد بها مملكة

---

(8) سعيد عبدالفتاح عاشور، الحركة الصليبية (القاهرة: 1963م): 1/ 97؛

Setton, A History of the Crusades: 2/ 632.

(9) أسد رستم، الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب (بيروت: 1956م): 2/ 115؛ ج. ب. سيغال الرها المدينة المباركة، ترجمة: يوسف إبراهيم صبرا (حلب؛ 1988م)، ص 273، 275؛

Setton, A History of the Crusades: 2/ 632.

(10) P.M. Holt, the Age of Crusedes (London: no. p.)k p. 185.

(11) مروان المدور، الأرمن عبر التاريخ (بيروت 1982م)، ص 223.

أرمينية الصغرى[12]، التي ارتبطت بحكم موقعها الجغرافي بعلاقات سياسية مع القوى الإسلامية المجاورة، وقد كانت في معظمها علاقات صراع؛ لأن المنطقة التي شغلتها هذه المملكة تعد من مناطق التخوم بين القوى الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية، لذلك لعبت هذه المملكة دورا كبيراً على مسرح الأحداث، وازداد هذا الدور إثر الغزو الصليبي، فبحكم كونها المعبر الرئيس للوصول إلى بلاد الشام وقلب آسيا الصغرى، مما جعلها هدفاً للصليبيين للوصول إلى بلا د الشام من جهة، وهدفاً للقوى الإسلامية للوصول إلى مناطق آسيا المختلفة، أو لتأمين ممتلكاتها من جهة أخرى، فضلا عن رغبة هذه المملكة في التوسع والحصول على مناطق نفوذ جديدة؛ لذلك كانت مؤهلة لكي تصطدم أو تقيم تحالفا مع القوى الإسلامية المجاورة كالسلاجقة أو الدانشمنديين أو الارانقة أو الزنكيين التي تمثل موضوع دراستنا هذه

أولاً: العلاقات الأرمينية – السلجوقية (463-644هـ/ 1071-1246م)

قبل البدء بالحديث عن العلاقات السياسية بين الطرفين لابد من إعطاء نبذة مختصرة عن أصل السلاجقة، وكيفية ظهورهم على مسرح الأحداث في الشرق، ومناطق نفوذهم؛ لكي تكون مدخلاً للعلاقة.

فالسلاجقة مجموعة من القبائل التركة التي كانت تقيم في منطقة التركستان أو بلاد ما وراء النهر، واشتقت هذه التسمية من الزعيم الذي عمل على وحدتهم، وهو

---

(12) شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان (بيروت: 1955م): 2/ 97؛ شهاب الدين أبو العباس احمد بن علي بن فضل الله، التعريف بالمصطلح الشريف (مصر: 1912م)، ص 56؛ أبو العباس احمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا (بيروت: 1987م): 8/ 30؛ احمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة (القاهرة: 1975م): ج1/ ق2/ ص551.

سلجوق بن دقاق في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي، واعتنقوا الإسلام وازدادت قوتهم في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فبسطوا سيطرتهم على خراسان في سنة 429هـ/ 1037م، وأعلنوا قيام الدولة السلجوقية، وتولى طغرل بك مهام السلطة، وحصلوا على اعتراف من الخلافة العباسية بدولتهم، وبعد إتمام سيطرتهم على بغداد دخل طغرل إلى بغداد سنة 422هـ/ 1055م[13].

عاشت الدولة السلجوقية أزهى فترات حكمها في زمن السلطان الب ارسلان وابنه ملكشاه [14]، الذي استولى على بلاد الشام وأرمينيا وبلاد الروم في آسيا الصغرى[15]. فكانت حدود مملكتهم تمتد من بلاد خوارزم شمالا حتى حدود اليمن جنوبا، ومن حدود الصين شرقا، إلى سواحل البحر المتوسط غربا، وبموت ملكشاه سنة 485هـ/1092م بدأت الانقسامات الداخلية تسودها بسبب النزاع على العرش، لتنتهي بظهور سلاجقة الروم، وسلاجقة العراق، وسلاجقة الشام، وتزامنت هذه الانقسامات مع بدء الحروب الصليبية، التي داهمت العالم الإسلامي، وبحكم الموقع الجغرافي الذي تتمتع به دولة سلاجقة الروم في الأناضول التي اتخذت من مدينة قونية عاصمة لها[16]، ومحاولاتها التوسعية ولكونه محاددة لأرمينية الصغرى، فقد ارتبطت معها بعلاقات مستمرة، كان يسودها الاتفاق والتحالف تارة، وأخرى يسودها الصراع على مناطق النفوذ.

---

(13) عصام الدين عبدالرؤوف، بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي (القاهرة: 1976)، ص 71.

(14) ج. م. هسي، العالم البيزنطي، ترجمة: رافت عبدالمجيد، ط 2 (القاهرة: 1982م)، ص 174؛ عبدالرؤوف، المرجع نفسه، ص 71.

(15) مؤرخ مجهول، تاريخ الرهاوي المجهول، تعريب: الأب البير(بغداد: 1986م): 2/ 66.

(16) هسي، العالم البيزنطي، ص 174.

بدأت العلاقات بين الطرفين عدائية أولا، ولاسيما عندما احتل السلاجقة مدينة آني عاصمة أرمينيا الكبرى في سنة 456هـ/ 1063م[17]، والحقوا بها الدمار والخراب، وكان لهذا الاحتلال وانتصارهم على البيزنطيين- حلفاء الأرمن في معركة ملاذ كرد سنة 463هـ/ 1071م - أثرٌ كبيرٌ في تزايد هجرة الأرمن من وطنهم الأم إلى قيليقيا، مما جعل الأرمن ينظرون نظرة عداء للسلاجقة، ومحاولة الثأر لاستقلالهم الضائع كلما سنحت لهم الفرصة لذلك، ومن ناحية أخرى عمل أمراء الأرمن في قيليقيا على استرضاء السلاجقة ومهادنتهم؛ لأجل تثبيت أقدامهم والحفاظ على ممتلكاتهم الجديدة في موطنهم الجديد[18].

اتبع الأمراء الأرمن سياسة الحذر الشديدة تجاه جيرانهم الأقوياء، وعلى رأس هؤلاء الأمراء فيلاريتوس الذي يعد واضع الأساس لدولة الأرمن في قيليقيا، والذي عمل جاهدا على تامين ممتلكاته من جهة السلاجقة، فحمل للسلطان ملكشاه الهدايا الثمينة والأموال والذهب في سنة 463هـ/ 1071م فلقي ذلك قبولاً حسناً عند السلاجقة الذين ساعدوه ضد خصمه طورنيق بن موسيل الأرميني، وتمكن بمساعدتهم له من تحقيق النصر عليه وقتله في سنة 466هـ/ 1074م، فقَدِم فيلاريتوس إلى بلاد السلطان ملكشاه في سنة 471هـ/1078م واقسم أمامه يمين الولاء والتبعية، فبقيت ملطية وحصونها وقلاعها بيده، على أن يكون بأمر السلاجقة وسلطتهم [19]. ومع ذلك نجد ان السلاجقة لا يمكن ان يغضوا النظر عن تلك

(17) عزالدين أبو الحسن محمد بن أبي الكرم ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: 1966م) 668/8؛ الباز العريني، الدولة البيزنطية (القاهرة: 1965): 1/ 794.

(18) استار جيان، تاريخ الأمة الأرمينية، ص 199.

(19) تاريخ الرهاوي المجهول: 2/ 67؛ رستم، الروم: 2/ 116.

الإمارة، التي تقف حائلا أمام توسعهم إلى الشام، فاستغل السلاجقة فرصة الاضطراب الذي عم إمارة فيلاريتوس، نتيجة تآمر أحد أبنائه ضده، فباغتوا انطاكيا الخاضعة لسلطته وملكوها في سنة 478هـ/ 1085م، وكذلك الحال بالنسبة لنوابه في ملطية ومرعش والرها، إذ أعلنوا ولاءهم للسلاجقة وعلى رأسهم جبريل الأرميني أمير ملطية، الذي بعث بزوجته إلى بغداد للحصول على اعتراف الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بإمارته [20]، ومن ناحية أخرى لعب الأرمن دورا كبيرا في مساندة الصليبيين ضد السلاجقة في الأقاليم التابعة لهم، فقد ساهموا في تسليم الرها وانطاكيا للصليبيين بحكم التعاطف الديني، ولكن سرعان ما ضجر الأرمن من التدخل الصليبي، وبدأوا يعدون ضدهم المؤامرات بالتعاون مع السلاجقة في سنوات 499هـ/ 1105م 506هـ/ 1112 و 507هـ/ 1113م، إلاّ ان نصيبها جميعا كان الفشل[21].

وبعد وفاة فيلاريتوس تولى البيت الروبيني مسؤولية زعامة الأرمن في قيليقيا، وتحملوا أعباء الصراع مع السلاجقة، فاتبع الأمير توروس الأول سياسة عدائية للسلاجقة في السنين الأولى من حكمه. إلا انه اضطر إلى الركون إلى الهدوء، واتباع سياسة الحذر معهم بعد أن أدرك ضعف موقفه، بسبب غاراتهم المتتالية على بلاده في السنوات 501هـ/ 1107م و 504هـ/ 1110م و 505هـ/

---

(20) عاشور، الحركة الصليبية: 1/ 178.

(21) للمزيد من التفاصيل، ينظر: أبو يعلى حمزة ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (بيروت: 1908)، ص 148؛ العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية (القاهرة: 1963م): 1/ 451.

1111م[22]. وفي سنة 508هـ/ 1114م حاصروا بقيادة البرسقي في مدينة الرها، إلا انهم اضطروا إلى رفع الحصار عنها بسبب سوء الظروف المناخية وقلة المؤن، وكان من أهم نتائج هذه الغارات، أن أعلن بعض أمراء الأرمن التبعية للسلاجقة، مثل أرملة كوغ باسيل أمير كيسوم ورعبان الأرميني [23]. وبعد هذه التاريخ لم يتعرض السلاجقة لقيلقيا حتى الاجتياح البيزنطي لها في سنة 532هـ/ 1137م، إذ استغل السلطان السلجوقي مسعود فرصة ضعف الحاميات البيزنطية فيها، فهاجم قيلقيا واحتل مدينة ادنة وأسر عدداً كبيراً من سكانها. فما كان من الأمير توروس الثاني إلا ان قام بمهاجمة الحاميات السلجوقية، واستولى على القلاع الجبلية وأطلق سراح الأسرى الأرمن، وبعد صراع مع السلاجقة والبيزنطيين تمكن من إعادة سيطرته على قيليقيا، وذلك في سنة 543هـ/ 1148م[24]، إلا أن السلطان السلجوقي في قونية لم تضعف عزيمته في استعادة قيلقيا، فاستغل فرصة الصراع البيزنطي الأرميني، فاخذ في التوسع في الأراضي القيلقية، وغربي الفرات وعلى حساب ممتلكات الطرفين، فاستولى السلطان مسعود على مرعش في سنة 544هـ/ 1149م، مما اضطر جوسلين الثاني أمير الرها الصليبي، والسند القوي لتوروس الثاني إلى الاعتراف بالسلطان مسعود سيدا عليهم، وعندما وقع جوسلين أسيرا بيد الكتائب التركمانية التي سلمته إلى نور الدين زنكي في سنة 545هـ/ 1150م. سهل ذلك على السلاجقة مهاجمة قيليقيا، فزحف السلطان مسعود إلى قيليقيا فضلا عن

(22) رنسيمان، تاريخ الحروب: 198/1؛ Setton, A History of the Crusades: 2/ 636.

(23) عماد الدين خليل، الامارات الارتقية في الجزيرة والشام (بيروت: 1980م)، ص 228؛ Setton, A History of the Crusades: 2L 636.

(24) Setton, Ibid: 2/637.

مرعش وبهسنى[25] وكيسوم ورعبان وسائر الأملاك الأرمينية الواقعة على أطراف الرها، وبذلك أصبحت أشهر القلاع القيليقية بيد السلاجقة وتعد الدرع الحامي لها[26].

وبعد أن فشل الإمبراطور البيزنطي في التغلب على أمير قيلقيا الأرمني تورس الثاني في سنة 547هـ/ 1152م لجأ إلى سلاح آخر، وهو فتح باب التفاوض مع السلطان مسعود السلجوقي، إذ عرض عليه مبلغا كبيرا من المال مقابل قيامه بمهاجمة الأمير توروس، وبمؤازرة قوات بيزنطية، فزحف السلطان مسعود إلى قيليقيا فعلا، وعندما حاول عبور جبال طوروس وجدها مدججة برجال توروس المسلحين؛ لذلك آثر التفاوض معهم فطلب من الأمير توروس الثاني ان يعترف بسيادته عليه، وإعادة المدن القيليقية التي استولى عليها من البيزنطيين، فوافق الأمير توروس الثاني على الشرط الأول، إلا انه رفض التنازل عن شبر واحد من أرضه للبيزنطيين[27].

ومع ذلك اتفق الطرفان بإعلان توروس تبعيته للسلطان مسعود، ووقعا معاهدة صلح في سنة 548هـ / 1153م، وكانت هذه المعاهدة بطبيعة حالها تمثل صلحاً للطرفين على حساب الإمبراطور البيزنطي، إلا أن الأخير لم يكف عن تحريض السلطان مسعود ضد توروس الثاني من خلال بذخه الأموال والذهب والهدايا الثمينة من ناحية، فضلا عن طمع السلطان مسعود في التوسع على حساب

---

(25) بهسنى: قلعة تقع شمالي حلب وشمال غرب عينتاب وهي ذات موقع عسكري مهم، وسكانها من الأكراد والتركمان والأرمن. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 8/ 125.

(26) اسحق عبيد، روما وبيزنطية (القاهرة: 1970م)، ص 208-209؛ العريني، الشرق الأوسط: 1/ 401.

(27) عبيد، المرجع نفسه، ص 212؛ Setton, A History of the Crusades: 2/ 639.

الأرمن في أراضي قيليقيا، مما شجعه على إرسال قواته وعلى رأسها قائده يعقوب في سنة 549هـ/ 1154م لمهاجمة الأمير توروس الثاني، إلا ان انقضاض الصليبيين ورجال ستيفن شقيق توروس على القوات السلجوقية في ممر بورتللا الجبلي الضيق الذي يصل بين قيليقيا وبلاد السلاجقة، فالحق هزيمة فادحة بهم [28]، وقتل قائد الحملة، فكان لمقتله أثر كبير في تشتيت جنوده، هذا إلى جانب وباء الطاعون الذي فتك بهم، في أثناء حصارهم لقلعة تل حمدون، مما اضطرهم إلى رفع الحصار والانسحاب إلى عاصمتهم، وفي خضم هذه الظروف السيئة التي مر بها السلاجقة توفي السلطان مسعود سنة 550هـ/ 1155م.

وتولى الزعامة بعد وفاة السلطان السلجوقي مسعود ولده قلج أرسلان الثاني (551-584هـ/1156-1188م)[29] فدخل في صراع مع الأمراء الأرمن، فقد قام الأمير توروس الثاني بمهاجمة مرعش في سنة 554هـ/ 1159م، وقتل عددٍ كبيرٍ من السلاجقة واسر ما يقارب الأربع مئة، مما أثار غضب السلطان قلج ارسلان الثاني[30]، وبدلا من شن الغارات على الأمير توروس الثاني، اثر اتباع سياسة إثارة الصراعات الداخلية بين الأمراء الأرمن، ومساندة بعضهم ضد بعضاً، بهدف إضعافهم، فمد يد العون إلى الأمير مليح الذي تآمر لقتل شقيقة توروس الثاني، وعلى الرغم من فشل هذه المحاولة، بقي السلاجقة على وفاق مع الأمير مليح، إلا أن هذه العلاقة لم تلبث أن ساءت في عهد الأمير روبين الثالث (571-582هـ/ 1175-1186م)، الذي شن الغارات على القبائل التركمانية، مما دفع السلطان قلج

(28) عبيد، روما وبيزنطة، ص 212؛ Setton, Ibid: 2/ 639

(29) استار جيان، تاريخ الأمة الأرمينية، ص 212-213؛ عبيد، المرجع نفسه، ص 212.

(30) Setton, A History of the Crusades: 2/639.

أرسلان الثاني إلى الاستنجاد بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي الحق بروبين الثالث هزيمة، وأجبره على إعادة الأسرى والغنائم وذلك في سنة 576هـ/ 1180م[31].

وفي سنة 583هـ/ 1187م عبرت القبائل التركمانية إلى قيليقيا، مجتازة الممرات القيليقية الشمالية، وبلغت سيس، وعاثت في المنطقة خرابا، فجمع الأمير ليفون الثاني (582-616هـ/ 1186-1219م) قواته وهاجم هذه الحشود، وتمكن من التغلب عليهم وقتل قائدهم رستم وتتبع الهاربين منهم حتى قلعة سرفندكار، والحق بهم خسائر فادحة.

استغل الأمير ليفون الثاني فرصة الاضطرابات الداخلية والصراعات التي عمت الدولة السلجوقية في سنة 588هـ/ 1192م بسبب وفاة السلطان قلج ارسلان الثاني، فهاجم الممتلكات السلجوقية، إلا أن هجومه لم يكن موفقاً، فقد قتل عدداً كبيراً من رجاله، فعاود الكرة بعد شهرين ملحقاً بها خسارة كبيرة. ورداً على ذلك قام السلطان السلجوقي كيخسرو الأول (588-607هـ/ 1192-1210م) بالإغارة على قيليقيا في سنة 589هـ/1193م، وأعاد الكرّة في سنة 598هـ/ 1201م ملحقا بها خسائر جسيمة[32].

لم تفلح محاولات ليفون الثاني الذي منح لقب ملك من قبل البابا سنة 596هـ/1199م للاستعانة بالصليبيين في حماية بلاده من خطر السلاجقة [33]، إذ

(31) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: محمد جمال الدين الشيال (القاهرة، 1964)، ص 54.

(32) رنسيمان، تاريخ الحروب: 2/ 185.

(33) Lang, Armenia, p. 203.

عاود السلطان كيخسرو الأول هجماته على قيليقيا. ففي سنة 605هـ/ 1208م هاجم مرعش وعاث فيها خراباً وسلباً ونهباً، وفتح عدداً من القلاع والحصون [34]، ولم يكن أمام الأرمن سوى الالتجاء إلى البيزنطيين لحماية بلادهم، حيث طلب الملك ليفون الثاني المساعدة من الإمبراطور البيزنطي ثيودور لاسكاليس فوافقه الأخير، ودخل الاثنان في صراع مع السلطان السلجوقي كيخسرو الأول، وانتهى الصراع بمقتل السلطان كيخسرو في سنة 607هـ/ 1210[35]، واستعاد المتحالفات عدداً من القلاع و الحصون والمدن المهمة كهرقلة وقرمان [36] التي فقدها السلاجقة بسبب انشغال سلطانهم الجديد كيكاوس الأول (607-616هـ/ 1211-1219م) في صراعه مع عمه طغرل بك على السلطة[37]، ولكن ما أن تمكن السلطان كيكاوس الأول من استعادة الأمن والاستقرار لبلاده، بعد ان قضى على الصراعات الداخلية، حتى أسرع في سنة 611هـ/ 1214م[38] بمهاجمة مملكة أرمينية الصغرى التي كانت مشغولة في حروب طاحنة مع إمارة انطاكيا الصليبية، فحاصر السلاجقة قلعة جابان وقيصرية، وبهدف فك الحصار عن هاتين القلعتين، وكف الغارات السلجوقية عن بلاده، وأرسل الملك ليفون الثاني سفارة إلى السلطان كيكاوس الأول طالبا منه

---

(34) شمس الدين الذهبي، دول الإسلام (الدوحة: 1988): 2/ 111.

(35) تمارا تاليوت رايس، السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة: لطفي الخوري (بغداد، 1968)، ص 77؛ Ostrogorsky, A History of the Byzantine State, p. 229.

(36) انوان خانجي، مختصر تواريخ الأرمن (القدس: 1868م)، ص 234؛ عاشور، الحركة الصليبية: 953/2.

(37) جمال الدين بن محمد بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال (القاهرة: 1953م): 217/3.

(38) رايس، السلاجقة، ص 79.

الصلح والمهانة، فقدمت له السفارة كل مظاهر الطاعة والاحترام[39] وعرض على السلطان مضاعفة الجزية المفروضة على بلاده، فضلا عن ما قدمه من هدايا ثمينة، اشتملت على خيول وذهب وفضة وجواري، ومقابل تلك الهدايا والطاعة وافق السلطان على توقيع هدنة بينهما[40] فارضا على الأرمن شروطا أهمها:

1. ان يعترف الملك ليفون الثاني بتبعيته وولائه للسلطان كيكاوس الأول.
2. مضاعفة مقدار الجزية التي فرضها عليه السلطان كيكاوس والبالغة عشرين ألف دينار.
3. تقديم خمس مئة فارس أرمني سنويا لخدمة السلطان.
4. ويعيد السلطان كيكاوس العاصمة سيس للملك الأرمني، إذ ما طبق الملك ليفون بنود الهدنة.

أرسل السلطان كيكاوس أمير الدواة ضياء الدين قرا ارسلان لأخذ الجزية من الملك ليفون الثاني، فدفع الأخير نصف الجزية على أن يدفع ما يتبقى منها بعد ستة اشهر وعندما علم السلطان أن الملك ليفون قد طبق جميع شروط الهدنة بشكل جيد، أطلق سراح جميع الأسرى الأرمن الذين في حوزته [41]. إلا أنَّ الملك ليفون الثاني لم يلبث أن بدأ القيام ببعض الأعمال التي أخلت بشروط الهدنة، فتوجه

---

(39) ابن واصل، مفرج الكروب: 3/ 223.

(40) الحسين بن محمد بن علي بن بيبي، الأوامر العلائية في الأمور العلائية (أنقرة: 1957)، ص 236-237.

(41) ابن بيبي، الأوامر العلائية، ص 236-237.

السلطان كيكاوس في سنة 613هـ/ 1216م إلى أرمينيا الصغرى لطرد الملك ليفون الثاني، الذي هرب أمامه إلى جبال أرمينيا[42].

توفي السلطان كيكاوس الأول سنة 616هـ/ 1219م فتولى أمر السلطنة شقيقة علاء الدين كيقباذ (616-634هـ/ 1219-1236م)، الذي استثمر فرصة الاضطرابات التي حلت بأرمينية الصغرى بعد موت الملك ليفون الثاني سنة 616هـ/ 1219م، وتولى ابنته الصغيرة ايزابيلا حكم البلاد، فهاجم أرمينية الصغرى وطهر منطقة طوروس الغربية من الأرمن وتمت له السيطرة على أرمينية السفلى [43]، وبذلك دخلت أرمينيا تحت سيطرة السلاجقة [44]، ويمكن الاستدلال على ذلك من النقود التي سكت في هذه الفترة التي يتضح من خلالها بأن مملكة أرمينية الصغرى دخلت في تبعية السلاجقة، إذ عثر على قطع نقدية كتب على أحد وجهيها اسم الملك هيثوم الأول، الذي حل محل ايزابيلا على الحكم، وعلى الوجه الثاني اسم السلطان السلجوقي كيقباذ [45]، فان دل هذا على شيء فانه يدل على تبعية هيثوم ملك أرمينية الصغرى وخضوعه للسلطان السلجوقي. وفي عهد السلطان كيخسرو الثاني الذي حل محل والده المتوفى في سنة 635هـ/ 1237م على أمر السلطنة استمرت العلاقات العدائية مع الأرمن؛ لذلك أغار السلاجقة على أرمينية الصغرى سنة 635هـ/ 1237م واحتلوا عددا من المواقع ذات

---

(42) رايس، السلاجقة، ص 80-81.

(43) رنسيمان، تاريخ الحروب: 3/ 307؛ عاشور، الحركة الصليبية: 2/ 991؛ رايس ، المرجع نفسه، ص 81.

(44) محمد فؤاد كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ترجمة: أحمد السعيد سليمان(بيروت، 1965)، ص 52.

(45) المدور، الأرمن، ص 235؛

Claude Cahen, Pre-Ottoman Turkey (London: 1968), p. 133.

الأهمية الاقتصادية والعسكرية، وفرضوا عليها الجزية [46]، وبعد أن فشل الملك هيثوم الأول في رد غارات السلاجقة أذعن لدفع الجزية لهم واستمر حتى ظهور الغزو المغولي، فوجد فيهم الملك هيثوم القوة المنقذة له من السلاجقة وانظم إليهم [47]، مما أثار ذلك غضب السلطان كيكاوس الثاني، الذي تولى السلطة بعد وفاة والده كيخسرو الثاني سنة 643هـ/ 1245م، فأغار على أرمينية الصغرى، وألحق بهم خسائر جسيمة، مما أثار حقد الملك هيثوم الأول الذي أعلن تبعيته للمغول وسلمهم زوجة السلطان كيكاوس وابنته اللتين التجأتا إلى بلاطه، بعد احتلال المغول لقونيا عاصمة السلاجقة في أواخر سنة 643هـ/ 1245م[48].

فكان لهذه الفعلة أثرها في نفس السلطان كيكاوس الثاني، فأخذ يدعم المتمردين الأرمن ضد الملك هيثوم الأول، حيث قام السلطان السلجوقي بتقديم المساعدة لوزير الملك هيثوم الذي يحمل الاسم نفسه، وتمكن هذا الوزير في سنة 644هـ/ 1246م من السيطرة على عدد من القلاع والحصون بمساعدة السلاجقة[49].

أحدثت وفاة السلطان كيكاوس الثاني سنة 644هـ/ 1246م، ودخول أبنائه في تبعيتهم للمغول حلفاء الأرمن في السنة ذاتها تغييراً في العلاقات الأرمينية السلجوقية، إذ أصبح الاثنان من اتباع المغول ويأتمران بأمرهما، مما أدى إلى

---

(46) كوبرلي ، قيام الدولة العثمانية، ص 52؛ رنسيمان، تاريخ الحروب: 3/ 402.

(47) غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري، تاريخ الدول السرياني، منشور في مجلة المشرق اللبنانية، ع 49، 1956، ص 746.

(48) Cahen, Pre-Ottoman Turkey, p. 271: Setton A History of the Crusades: 2/652.

(49) كوبرلي، قيام الدولة العثمانية، ص 52.

تحسين العلاقة بينهما خدمة للمغول، وتوجت هذه العلاقة بزواج ابنة هيثوم الأول من معين الدين البروانة [50] صاحب الروم، وهكذا انتهت العلاقات التي سبق ان كانت عدائية إلى ودية بتأثير من المغول[51].

ثانياً: العلاقات الأرمينية – الدانشمندية (491-570هـ/1097-1174م)

نشأت الإمارة الدانشمندية في الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى، محاددة لقيليقيا، متخذة من سيواس عاصمة لها، ويعد الأمير التركماني أحمد بن الدانشمند المؤسس الأول لهذه الإمارة، التي قامت بالتوسع على حساب الممتلكات البيزنطية في كيدوكيا واماسية وقيصرية.

خضع الدانشمنديون منذ تأسيس إمارتهم للسلطان السلجوقي ملكشاه صحاب بلاد فارس، ولم يعترفوا مطلقا بسيادة السلطان سليمان بن قتلمش صاحب سلاجقة الروم، فدخل خليفة أحمد الأمير غازي كمشتكين (478-521هـ/ 1084-1126م) في صراع مع البيزنطيين، كما دخل في صراع مع السلاجقة والصليبيين على قيليقيا[52].

---

(50) معين الدين البروانة، هو سليمان بن محمد بن حسن الصاحب معين الدين كان في بدء الأمر معلما للصبيان ثم وصل بجده إلى منصب الوزارة و أطلق عليه لقب البروانة ومعناه في الأصل الحاجب، و أطلق هذا اللقب بدولة السلاجقة على الوزير الأكبر وكان مديراً لمملكة السلاجقة وتوفي في سنة 676هـ في واقعة المغول مع الظاهر بيبرس، ينظر: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تعزي بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تحقيق احمد يوسف نجاتي (القاهرة: 1956): 1/ 185.

(51) Cahen, Pre-Ottomon, Turkey, p. 271.

(52) عاشور، الحركة الصليبية: 1/ 93؛ رنسيمان، تاريخ الحروب: 1/ 112، 268.

بدأت تهديدات غازي كمشتكين في سنة 491هـ/ 1097م على إمارة ملطية الأرمينية، على اثر ضعف السلاجقة، وحاول غازي بن الدانشمند أن يبسط سيطرته على ملطية، واستمر يهددها ثلاث سنوات من خلال غاراته المتكررة على أراضيها وتخريبها ونهبها، فاضطر صاحبها جبريل الأرميني اللجوء إلى الصليبيين طالبا العون منهم في سنة 494هـ/ 1100م[53]، فتوجه بوهيمند الأول أمير انطاكيا الصليبي إلى ملطية لإنجاد أميرها الأرميني ومساندته ضد الأمير غازي كمشتكين الدانشمندي صاحب سيواس، إلاَّ أن بوهيمند الأول وقع في أسر الأمير غازي كمشتكين، كما سار الأمير بلدوين لي بورج أمير الرها الصليبية إلى ملطية، إلا أن القوات الدانشمندية انسحبت، فاستطاع بلدوين بذلك تخليص ملطية منهم؛ لذلك أعلن جبريل الأرميني تبعيته لبلدوين لي بورج أمير الرها[54]، وترك فيها الأخير حاميات صليبية، ولم يلبث الدانشمنديين أن عاودوا الهجوم ثانية على ملطية في سنة495هـ/ 1101م، ولكن دون جدوى، وفي سنة 497هـ/ 1103م وأثناء محاولات التفاوض لإطلاق سراح الأمير بوهيمند الأول، هاجم غازي كمشتكين ملطية للمرة الثالثة، وعلى الرغم من طلب أميرها الأرميني للنجدة الصليبية من الأمير بلدوين إلاَّ أن الأخير تجاهل ذلك وصم أذنيه خشية أن تتعرقل مفاوضات إطلاق سراح الأمير بوهيمند صاحب انطاكيا الصليبية؛ لذلك سقطت بيد غازي كمشتكين، وأسر الأمير جبريل الذي نُفذ فيه حكم الإعدام، أما بوهيمند فقد أطلق سراحه لقاء فدية كبيرة وذلك في سنة 497هـ/ 1103م[55].

---

(53) عاشور، المرجع نفسه: 1/ 178.

(54) الجنزوري، إمارة الرها، ص 240؛ عاشور الحركة الصليبية: 1/ 281، 388.

(55) رايس، السلاجقة، ص 94؛ رنسيمان، تاريخ الحروب: 2/ 67؛ الجنزوري، المرجع نفسه، ص 240.

بقيت ملطية تحت السيطرة الدانشمندية حتى انتزعها السلاجقة منهم في سنة 570هـ/ 1174م، وبعدها لم يدخل الدانشمنديون في صراع مع أرمن قيليقيا حتى سنة 525هـ/ 1130م بسبب تخوفهم من السلاجقة الطامعين فيها[56]، إذ دخل الأمير كمشتكين الدانشمندي إلى قيليقيا في سنة 525هـ/ 1130م[57]، رداً على عمليات السطو والنهب التي قام بها الأمير ليفون الأول في داخل حدود الإمارة الدانشمندية، فاصطدم كمشتكين بالقرب من المصيصة بقوات الأمير الصليبي بوهيمند الأول أمير انطاكيا، الذي جاء لمعاضدة الأرمن، ودارت المعركة بين الطرفين، حيث قتل أمير انطاكيا. وفي سنة 526هـ/ 1131م هاجم، الأمير كمشتكين قيليقيا ثانية وتمكن من الاستيلاء على بعض القلاع والحصون، كما فرض الجزية على الأرمن في قيليقيا[58]، ولتحاشي الغارات الدانشمندية على الأراضي القيليقية، اضطر الأمير ليفون الأول إلى عقد معاهدة صلح وعدم اعتداء مع الأمير غازي كمشتكين؛ بسبب ضعف موقفه من جهة، ولكي يتخذ منه حليفا، وسندا للوقوف بوجه مطامع أمراء أنطاكيا الصليبيين في بلاده من جهة أخرى[59].

وتمكن الأمير ليفون الأول من فرض سيطرته على أهم المدن القيليقية، المتمثلة بطرسوس والمصيصة وادنة في سنة 527هـ/ 1132م، وبدعم من الأمير الدانشمندي بموجب الصلح المعقود بين الطرفين[60].

(56) عاشور، الحركة الصليبية: 1/ 580.

(57) Setton, A History of the Crusades: 2/635-636.

(58) Ibid: 2/535-637.

(59) رنسيمان، تاريخ الحروب: 2/ 319.

(60) Canard “Cilicia” The Encyclopaedia: 2/37; Setton, A History of the Crusades: 2/636.

وساد الهدوء العلاقات الأرمينية الدانشمندية حتى سنة 530هـ/ 1135م، فعندما أسِرَ ليفون الأول من قبل بوهيمند الثالث أمير انطاكيا لم يتحرك حلفاؤه الدانشمنديين لنجدته، وانما استغلوا الفرصة و أغاروا بقيادة الأمير محمد الثاني على قيليقيا، ودمرت محصولاتها وذلك في سنة 532هـ/1137م[61]، كما استغل الأمير محمود الدانشمندي الظروف السيئة التي مرت بها قيليقا، اثر الاجتياح البيزنطي لها في أواخر سنة 532هـ/ 1137م، فهاجم قيليقيا العليا في سنة 533هـ/ 1138م وانتزع قلعة فاها فضلا عن مناطق جبلية أخرى[62]، مما جعله وجها لوجه مع البيزنطيين الذين استردوا ما انتزعه من الأراضي القيليقية، فضلاً عن مساحات واسعة حتى إمارة طرايزون الواقعة على حدود البحر الأسود الجنوبية[63].

وعلى الرغم من ذلك بقيت محاولات الدانشمنديين التوسعية قائمة في قيليقيا، في سنة 543هـ/ 1148م واشترك الأمير عين الدولة الدانشمندي مع السلطان نور الدين زنكي في مهاجمة المقاطعات التابعة للأمير الأرميني كوغ باسيل في كيسوم ورعبان، إلا انهم لم يتوغلوا في قيليقيا، بسبب المخاوف من الاصطدام مع البيزنطيين الذين كانوا قد توغلوا في داخل قيليقيا أيضاً[64].

ان الضعف الذي دَبَّ في جسم الإمارة الدانشمندية بعد سنة 543هـ/ 1148م؛ بسبب النزاعات الداخلية بين أفراد الأسرة الحاكمة، فضلاً عن صراعهم المستمر مع البيزنطيين، ودخولهم في حماية الإمبراطور البيزنطي، كما ان هجمات

---

(61) رنسيمان، تاريخ الحروب: 2/ 221.

(62) رنسيمان، تاريخ الحروب: 350/2؛ Setton, A History of the Crusades 2/637.

(63) عاشور، الحركة الصليبية: 1/ 580-581.

(64) Setton, A History of the Crusades: 2/639.

السلاجقة المتكررة على بلادهم إثر وفاة نور الدين زنكي الحليف القوي لهم أدى إلى انكفاء الإمارة الدانشمندية وإنهاء السلاجقة لها في سنة 570هـ/ 1174م(65).

ثالثاً: العلاقات الأرمينية – الأرتقية (498-566هـ/ 1104-1171م)

ظهرت الإمارة الأرتقية في إقليم ديار بكر من بلاد الجزيرة الفراتية، التي عاشت متزامنة مع نشاط الإمارة الأرمينية في قيليقيا، وارتبطت هاتان الإمارتان مع بعضهما بعلاقات غير مستمرة بين الصراع تارة ومحولات المصالحة تارة أخرى. كل ذلك بحكم الموقع الجغرافي والحدود المشتركة بين الطرفين، ولفهم العلاقة بشكل واضح لابد من إعطاء نبذة عن كيفية نشوء الإمارة الارتقية.

ظهر الاراتقة كعائلة حاكمة في الربع الأخير من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، ويعد ارتق بن أكسب الجد الأكبر لها، لهذا استمدت تسميتها منه، لقد كان ارتق أحد القادة التركمان التابعين للسلطان السلجوقي تتش، الذي اقطعه بيت المقدس وجعله نائبا عنه في سنة 479هـ/ 1086م(66).

استمر ارتق في حكم بيت المقدس إلى أن وافته المنية في سنة 484هـ/ 1091م، فخلفه في نيابة بيت المقدس ولده سكمان، الذي انتزع في عهده الوزير

---

(65) مورتمان "الدانشمندية" دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية): 9/ 115.

(66) ابن الأثير، الكامل: 282/1؛ شافع ذبيان الحريري، تنافس أمراء المسلمين وتحالف بعضهم مع الصليبيين وأثره على الصراع الإسلامي الإفرنجي في بلاد الشام (بحث منشور ضمن أعمال الندوة العلمية الأولى لقسم التاريخ جامعة اليرموك – الأردن: 1999)، ص 5.

الأفضل الفاطمي المدينة، فاضطر الاراتقة إلى مغادرتها إلى دمشق، ومنها توجهوا إلى الأقاليم الشمالية الشرقية من الجزيرة حول ديار بكر[67].

توفي سكمان بن ارتق في سنة 498هـ/ 1104م بعد ان اخضع لسلطته كل من مدينة ماردين وحصن كيفا في ديار بكر[68]، وتولى السلطة بعده شقيقة ايلغازي الذي مد حدود إمارته إلى معظم بلاد الجزيرة وأرمينيا، بعد صراع طويل مع القوى الإسلامية والمسيحية المجاورة[69].

وبعد أن أصبح للصليبيين كيانات في ديار الشام، بدأ أمراؤهم بنكران الجميل الذي قدمه لهم الأرمن من المؤن والإمدادات العسكرية، فاتبعوا سياسة العنف واستغلال السكان الأرمن المحليين في هذه الإمارات، ومما يعزز ذلك ما ذكره المؤرخ الأرميني متي الرهاوي، الذي كان معاصراً للأحداث فقال واصفاً أمير الرها الصليبي بلدوين: "لقد اعتصر الرها وأخذ الكثير من الأموال والذهب والفضة"[70] وسرعان ما أخذ الأرمن يتذمرون من هذه المعاملة السيئة، ومحاولة فرض نظم جديدة عليهم لم يألفوهم سابقا، مما دفعهم إلى تدبير مؤامرة للتخلص من هذا الحاكم، فوجدوا في الاراتقة ضالتهم، خاصة وان ديار بكر اقرب إليهم من سائر القوى المعادية للصليبيين، فاتصلوا بهم سرا للحصول على مساعدة، إلا ان بلدوين تمكن من إحباط هذه المؤامرة، بعد وصوله نبأ هذه المؤامرة من أحد الأرمن، وتمت

(67) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 135؛ عاشور، الحركة الصليبية: 1/ 116 الحريري، تنافس أمراء المسلمين، ص 7.

(68) تستر ستين "سقمان" دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية): 12/ 10.

(69) تاريخ الرهاوي المجهول: 2/ 106.

(70) متي الرهاوي، حولية متي الرهاوي نقلا عن: محمود جبران، المصادر الأرمينية (بحث منشور ضمن أعمال الندوة العلمية الأولى في قسم التاريخ - جامعة اليرموك، الأردن: 1999)، ص 11.

معاقبة المتآمرين واعدم معظم زعمائهم [71]. إلا ان الأرمن اتصلوا ثانية بالاراتقة على اثر هزيمة الصليبيين على أيديهم في معركة حران سنة 497هـ/ 1103م؛ بسبب زيادة تذمرهم، ولكن إغارة إياز بن ايلغازي الارتقي، الذي كان والده قد أرسله على راس قوة عسكرية سنة 505هـ/ 1111م لقتال الصليبيين، فدفعته أطماعه وأهواؤه الشخصية إلى مهاجمة قوات أرمينية، كانت سبباً في توتر العلاقات فيما بين الطرفين[72]، مما دفع الأرمن إلى عدم الثقة بالاراتقة والعودة إلى التحالف مع أبناء دينهم، حيث اشترك الأمير ليفون الأول مع الأمير روجر الانطاكي أمير انطاكيا في مهاجمة أعمال حلب سنة 512هـ/ 118م[73] فاستولوا على عدد من قلاعها، ورفضوا العرض الذي قدمه الأمير ايلغازي الذي تضمن انسحابهم من هذه القلاع مقابل مبلغ من المال مستغلين الظروف الحرجة التي يمر بها ايلغازي والتي جعلته عاجزا عن محاربتهم، حيث كان الاراتقة غير قادرين على توفير الأعلاف لدوابهم[74]؛ بسبب قلة المحاصيل الزراعية من ناحية وزيادة النفقات على الحروب مع الصليبيين من ناحية اخرى.

واصل الأرمن تقديم الدعم للصليبيين ففي سنة 514هـ/ 1120م ساهموا في التصدي لهجوم بلك بن بهرام الارتقي ابن شقيق ايلغازي على إمارة الرها الصليبية[75]، ويهدف معاقبتهم توجه بلك بن بهرام إلى منطقة كركر فضيق على

---

(71) خليل، الإمارات الارتقية، ص 216؛ رنسيمان، تاريخ الحروب: 1/ 297.

(72) خليل، المرجع نفسه، ص 217، 225.

(73) Setton, A History of the Crusades: 2/636.

(74) خليل، الإمارات الارتقية، ص 237.

(75) المرجع نفسه، ص 276.

حاكمها ميخائيل الأرميني، مما دفعه إلى الاستنجاد بالصليبيين، فتوجه بلدوين ملك بيت المقدس لنجدته، إلا ان محاولته باءت بالفشل بسبب وقوعه في الأسر مع قريبه جوسلين الأول أمير الرها، وعلى الرغم من كثرة جيوشهم موازنة بالجيش الارتقي فقد تم لبلك الاستيلاء على منطقة كركر وسميساط وقلعة خرتبرت وعندما وردت أخبار اسر كلا من جوسلين وبلدوين في سنة 517هـ/ 1123م في خرتبرت عمل الأرمن على إنقاذهم، وتم ذلك فعلا، حيث اقتحم الأرمن القلعة، وأطلقوا سراح جوسلين الأول، ومن أهم الأسباب التي شجعتهم على تنفيذ هذه الخطة ان معظم سكان القلعة من الأرمن، وبعد إطلاق سراحه تم اخذ كل ما في القلعة [76]. وما ان علم بلك بن بهرام الارتقي بذلك حتى قاد قوات ضخمة متقدما إلى قلعة خرتبرت، فنزل عليها وفتحها في 23 رجب سنة 517هـ/ 1123م، وقتل معظم من كان فيها من الأرمن[77].

وفي سنة 531هـ/ 1136م أرسل الأمير ليفون الأول قافلة تجارية من سميساط إلى الرها، حاملة بضائع باهضة الثمن، يرافقها عدد كبير من الفرسان الصليبيين، فاعترض طريقها الأمير تمرتاش الارتقي، وعندما حاولت عبور نهر الفرات قرب قرية دافيال الواقعة على طريق الرها وبإمرته عشرة آلاف فارس، تمكن من الإيقاع بهم وأسر عدد كبير منهم، وغنموا ثروة طائلة ودواب وبغال وخيل[78].

---

(76) تاريخ الرهاوي المجهول: 2/ 113؛ سيغال، الرها، ص 290.

(77) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 210.

(78) تاريخ الرهاوي المجهول: 2/ 137-138.

لم تلبث الإمارة الارتقية ان تمزقت بعد وفاة ايلغازي الارتقي سنة 517هـ/ 1123م، فاقتسم أفراد الأسرة هذه الممتلكات، فاخذ ابنه شمس الدولة سليمان مدينة ميفارقين (أي الجزء الشمال من ديار بكر)، واخذ ابنه الثاني تمرتاش مدينة ماردين والجزء الجنوبي من ديار بكر، أما بلك بن بهرام وهو ابن شقيقه فقد احتفظ بقلعة خرتبرت من الشمال وحران من الجنوب، بينما استولى بدر الدولة سليمان بن عبدالجبار الارتقي ابن شقيقه الآخر على حلب [79]، فكان من نتائج ذلك انفراط عقد الوحدة لهذه الإمارة التي دخل امرؤها بعد انقسامهم في تبعية الإمارة الزنكية، التي أسسها عماد الدين الزنكي سنة 521هـ/ 1126م، فأخذت هذه الإمارة على عاتقها مهمة مقارعة القوى المجاورة من الأرمن والصليبيين، حيث اشترك أمراء الارتقة الى جانب نور الدين زنكي بن عماد الدين في معركة حارم ضد القوات الأرمينية البيزنطية الصليبية المتحالفة في سنة 559هـ/ 1164م، وأسفرت عن انتصار الزنكيين على القوات المتحالفة مع الأرمن [80]، كما انظم صاحب ماردين وحصن كيفا الارتقيين إلى الحلف الذي عقد سنة 566هـ/ 1171م بين كل من نور الدين زنكي، والأمير مليح الأرمني شقيق الأمير توروس الثاني، حيث تمت مساعدة الأمير مليح من قبل الاراتقة والزنكيين معاً ضد أخيه توروس[81]، لأجل خلعه من حكم إمارة الأرمن في قيليقيا، وتعيين الأمير مليح، مما كان له أثرٌ واضحٌ على تحسن العلاقات الأرمينية الارتقية في عهد الأمير مليح،

---

(79) كمال الدين أبو القاسم عمر بن احمد بن هبة الله ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق: سامي دهان (بيروت: 1958م): 2/ 209؛ عبدالرؤوف، بلاد الجزيرة، ص 152.

(80) محمود سعيد عمران، التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني، مجلة المؤرخ العربي، ع 8، 1978، ص 92.

(81) Cahen, Pre-Ottoman, Turkey, p. 102.

وبظهور الزنكيين بدأ دور الاراتقة يتلاشى في مقارعة الأرمن والصليبيين والبيزنطيين.

رابعاً: العلاقات الأرمينية – الزنكية (539-576هـ/ 1146-1180م

عاشت الدولة العربية الإسلامية في الحقبة التي نشأت فيها الإمارة الأرمينية في قيليقيا في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، حالة من الضعف والفوضى السياسية؛ بسبب تزايد الهجمات الصليبية الشرسة من ناحية، والتفكك الداخلي الناتج عن الأطماع الشخصية وتنافس الأمراء المسلمين فيما بينهم من أجل الاستحواذ على السلطة والتوسع كل على حساب الآخر، وفي هذه الفترة الحرجة، ظهرت قوة إسلامية جديدة ولدتها هذه الظروف، وأخذت على عاتقها أعباء مكافحة الأخطار الخارجية والعمل على توحيد الجبهة الإسلامية، ألا وهي الدولة الزنكية التي أقامها عماد الدين زنكي وأرسى قواعدها ولده نور الدين زنكي.

يعد عماد الدين زنكي المؤسس الأول لهذه الإمارة، وكان والده آق سنقر أحد المماليك الأتراك للسلطان السلجوقي الب ارسلان وولده ملكشاه من بعده وكان أحد أمرائه البارزين، وبلغ من المنزلة ان منحه السلطان لقب قسيم الدولة، ثم عهد إليه بولاية حلب سنة 497هـ/ 1086م[(82)].

(82) شهاب الدين أبو محمد بن عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بابي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية الصلاحية (بيروت: د/ ت): 1/65-66؛ ابن واصل، مفرج الكروب: 1/11.

قتل آق سنقر في أحد معاركه مع السلطان السلجوقي تتش في سنة 487هـ/ 1094م، وحرم ولده عماد الدين من أملاكه، فالتف حوله اتباع والده وأسندت إليه شحنكية البصرة في سنة 507هـ/ 1113م[83]، ثم تولى شحنكية العراق سنة 520هـ/1126م، فتمكن من تحقيق نجاح كبير في إخضاع القوى المحلية، ثم عين في سنة 521هـ/ 1126م من قبل السلطان السلجوقي أميرا على الموصل وبلاد الشام والجزيرة[84]، وانصرف في مقارعة الصليبيين وتوسيع إمارته وبعد مقتله سنة 541هـ/ 1146م خلفه ولده نور الدين محمود الذي واصل إكمال مهام والده في ترسيخ سيطرته على بلاد الموصل والشام والجزيرة ومقارعة الصليبيين، فأصبحت إمارته من أهم القوى السياسية التي هددت الأرمن في تلك الفترة. ويرجع ذلك الى عامل رئيس ألا وهو التتاخم الحدودي بين الإمارة الزنكية والإمارة الأرمينية في قيليقيا بعد التوسع الذي شهدته إمارة الزنكيين، مما أدى إلى نشوء علاقات متباينة بين كلا الجانبين يسودها الصراع تارة والمصالحة والتحالف تارة أخرى، حسب ما تقتضيه الظروف. وان كانت هذه العلاقات منذ بدءها وحتى تحرير الرها سنة 539هـ/ 1144م علاقات محدودة وطفيفة، حيث؛ والسبب في ذلك انشغال الزنكيين عن الأرمن في إخضاع القوى المحلية والصليبيين، ثم العلاقة تتضح بعد ذلك، لاسيما في عهد نور الدين زنكي الذي وسع ممتلكاته واخضع القوى المحلية لنفوذه، ولم يبق أمامه سوى القوى الصليبية التي لعبت دورا في تأجيج الصراع بين الأرمن والزنكيين.

---

(83) عبدالرؤوف، بلاد الجزيرة، ص 16.

(84) خليل، عماد الدين زنكي (الموصل، 1985)، ص 137.

بدأت أولى العلاقات بين الإمارتين عندما أحس الأرمن بتعاظم نفوذ الزنكيين وزيادة خطرهم، الذي هدد قيليقيا في أعقاب تحرير عماد الدين زنكي للرها سنة 539هـ/ 1144م، وشكل الأرمن فيها غالبية سكانها [85]، فكان رد الفعل الأرميني معاديا للإمارة الزنكية من خلال الدور الذي لعبه الأساقفة الأرمن، الذين ذهبوا من قيليقيا إلى روما بعد فترة وجيزة من سقوط الرها بيد زنكي لغرض استشارة البابا ديوجين الثالث في أمر توحيد كنيستي روما وأرمينيا من ناحية، ولإيقاف البابا على أحوال الشرق من ناحية أخرى لغرض دفعه إلى توجيه حملة صليبية ثانية ضد عماد الدين زنكي[86]، كما دبر الأرمن من سكان الرها في سنة 540هـ/ 1140م مؤامرة استهدفت إعادة السيطرة على الرها بعدما استدعوا جوسلين الثاني، إلا أن زنكي سرعان ما تمكن من كشفها وقبض على مدبرها من أهل الرها، عندما كان في طريقه إلى دمشق[87].

وبعد وفاة عماد الدين زنكي سنة 541هـ/ 1146م تولى ولده نور الدين السلطة، فكان أول عمل قام به أن استولى مع الأمير الدانشمندي عين الدولة غازي على ممتلكات الأمير الأرميني كوغ باسيل في كيسوم ورعبان سنة 543هـ/ 1148م[88].

(85) عاشور، الحركة الصليبية: 1/ 472.

(86) العريني، الشرق الاوسط: 2/ 262-263.

(87) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 282؛ خليل، عماد الدين زنكي، ص 157.

(88) Setton, A History of the Crusades: 2/639.

وفي سنة 545هـ/ 1159م فتح عدد من الحصون والمعاقل التابعة للأمير توروس الثاني[89]؛ وذلك لتأمين حدود بلاده الشمالية من الصليبيين، وعلى ما يبدو ان تحركات نور الدين هذه استثارة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين، الذي كان يعد قيليقيا ضمن مناطق نفوذه، ولوضع حد لها توجه بقواته لمهاجمة المعاقل الإسلامية فيها وعلى ما يبدو ان تلك الحملة كانت فاشلة بدليل موافقته على التنازل عن كيسوم ومرعش وبهسنى ورعبان لنور الدين زنكي وذلك في سنة 555هـ/ 1160م[90].

استمرت هجمات نور الدين زنكي على مناطق نفوذ الأرمن والبيزنطيين والصليبيين، ولاسيما في سنوات 556هـ/ 1161م و 558هـ/ 1163م و 559هـ/ 1164م، مما دفع هذه القوى إلى تشكيل تحالف أرمني صليبي بيزنطي لمواجهة تهديداته [91]، حيث انظم كل من بوهيمند الثالث أمير انطاكيا وريموند الثالث كونت طرابلس، وكولمان الحاكم البيزنطي لقيليقيا، وتوروس الثاني أمير قيليقيا الأرمني ومعه ستة آلاف أرمني لمساندة صاحب حارم الصليبي، الذي حاصره نور الدين في رمضان سنة 559هـ/ 1164م[92]، وبلغ عدد الجند

---

(89) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص 354.

(90) أبو شامة، الروضتين: 1/ 123؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا (القاهرة: 1973): 36/3؛ العريني، الشرق الأوسط: 1/ 618؛ Setton, A History of the Crusades: 2/640

(91) ابن الأثير، الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية، تحقيق: عبدالقادر احمد طليمات (القاهرة: 1963)، ص 116؛ شاكر أبو بدر، الحروب الصليبية والأسرة الزنكية (بيروت: 1972)، ص 288.

(92) محمد بن راغب بن محمود بن هاشم الطباخ، أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء (حلب: 1924م): 2/ 47؛ محمد كرد علي، خطط الشام (دمشق، 1926م): 2/ 18.

المتحالفين ثلاثين الفا [93] تاركين خلافاتهم جانبا، لأجل القضاء على نور الدين زنكي، لكونه الخطر الذي يهددهم جميعا.

لقد وجد نور الدين نفسه في مواجهة قوات أرمينية بيزنطية صليبية ضخمة يقودها أربعة أمراء فخطط لنصب كمين لهم، حيث قام بالانسحاب إلى قرية (عم) بالقرب من حارم لاستدراج هذه القوات والإيقاع بها، بعد إبعادهم عن مناطق نفوذهم.

نصح الأمير توروس الثاني الأمراء المتحالفين بعدم القتال حتى يصل الملك عموري ملك بيت المقدس الصليبي، لكي ينضم إليهم ويتقوَّوا به، إلا أنهم لم يأخذوا بنصيحته، لذلك هرب الأمير توروس الثاني وشقيقه مليح قبل وقوع المعركة [94] وعلى ما يبدو أن هروب توروس وأخيه جاء لإدراكهما بحسن إعداد نور الدين زنكي للمعركة، وافتقار القوات المتحالفة للاستعداد الكافي، فضلا عن انقسام القادة المتحالفين على أنفسهم على الرغم من كثرة قواتهم، ودارت المعركة على سهل ارتاح في شهر رمضان سنة 559هـ/ 1164م، فكان النصر من نصيب القوات الزنكية، حيث أشارت المصادر العربية إلى أن عدد قتلى القوات المتحالفة بلغ (10.000) آلاف رجل[95]، أما الأسرى فكان عددهم كبيراً والدليل على ذلك أن جميع قادتهم وقعوا في الأسر باستثناء الأمير توروس الثاني وشقيقه مليح اللذين هربا قبل وقوع المعركة، بعد أن تبين لهم عدم جدوى مقاومة القوات الزنكية[96].

(93) William of Tyre, A History of Deeds Donse Beyond the Sea (New York, 1943) 2/307.

(94) محمود سعيد عمران، التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني، مجلة المؤرخ العربي، ع8، 1978، ص93.

(95) ينظر: أبو شامة، الروضتين: 1/ 134؛ ابن العديم، زبدة الحلب: 2/ 320.

(96) William of Tyre, A History of Deeds Donse Beyond the Sea, vol. II.p. 307.

أما الأسرى الأرمن فيروي المؤرخ ميخائيل السرياني، أن الأمير توروس الثاني أرسل إلى نور الدين بعض الهدايا الثمينة مقابل إطلاق سراحهم، إلا ان نور الدين رفض هذا العرض مما دفع الأمير توروس إلى مهاجمة مرعش التابعة لسلطة نور الدين، وقام بنهبها، وأسر كل من كان بها من المسلمين، وعند ذلك تحول نور الدين إلى المصالحة وبودل الأسرى من كلا الطرفين(97)، والذي يمكن ان نلحظهُ أن فرار الأمير توروس وأخيه من المعركة دب الخلاف بينهما ودار صراع اضطر فيه الأمير مليح إلى الهرب من توروس إلى حلب، والاتصال بنور الدين زنكي وتحسين علاقته به(98)، ويقال انه اعتنق الإسلام(99).

توفي الأمير توروس الثاني سنة 564هـ/ 1169م، وما أن علم شقيقه الأمير مليح الذي كان في بلاط نور الدين زنكي بخبر وفاته حتى توجه إلى قيليقيا مباشرة، وهو يحتد غضبا؛ لأن شقيقه الأمير توروس الثاني قبل وفاته جعل ولده روبين الثالث أميراً تحت وصايا ابن خالته توماس بابل السفير الأرميني في إمارة انطاكيا الصليبية، فأثار ذلك حفيظته؛ لأنه كان يطمع بالوصاية على العرش في قيليقيا(100).

ودخل مليح إلى قيلقيا سنة 565هـ/ 1169م، بدعم من نور الدين زنكي بفرقة من الجند، وبعد حرب مع الأمراء الأرمن الموالين للأمير روبين الثالث، وتمكن مليح من طرد منافسيه واعدائه، ثم اجتمع بعد ذلك بأمراء الأرمن وأعيانهم، واتفقوا

---

(97) Michel Le Syrien Lachronigue, p. 359.

نقلا عن: عمران، التحالف البيزنطي الصليبي الأرميني، مجلة المؤرخ العربي، ع8، 1978، ص 97.

(98) استار جيان، تاريخ الأمة الأرمينية، ص 214؛ Setton, A History of the Crusades: 2/ 642

(99) Nikite Elisseff, Nur Ad-Din (Damas, 1967) 2/656.

(100) المدور، الأرمن، ص 230؛ Elisseff, Nur Ad-Din: 2/656.

على تعيين الأمير مليح على رأس السلطة [101]، كما استنجد الأمير بالسلطان نور الدين زنكي بعد توليه السلطة في سنة 565هـ/ 1169م، وعندما اجتمع الأمراء والملوك الصليبيين الذين عارضوا توليتهم؛ لذلك توجه نور الدين إلى حصن الكرك الصليبي؛ لأجل تقليل الضغط على الأمير مليح من خلال صرفهم عنه وانشغالهم بنجدة الكرك [102]، وفي السنة ذاتها عاد جنود نور الدين الذين مكَّنوا مليح من السلطة ومحملين بالهدايا الثمينة، التي وهبها لهم.

استمرت فكرة حكم مليح خمس سنوات، عمل فيها على كسب ود السلطان نور الدين ورضاه، فبدأ بحرب الأمراء الصليبيين، حيث كان يضمر لهم الحقد بسبب مساندتهم لمنافسيه، فكان يبيع الأسرى الصليبيين كرقيق للمسلمين [103]، وهكذا استفاد نور الدين زنكي من الأمير مليح كمساند له في مقارعة الصليبيين والبيزنطيين، كما حدث في سنة 568هـ/ 1172م، عندما توجه الأمير مليح لقتال الحاميات البيزنطية، فحقق فيها نصرا عظيما بمساندة السلطان نور الدين[104] وقتل اسر عدد كبير منهم، وكان من بين الأسرى ثلاثة من مقدمي الجيش البيزنطي، فأرسلهم إلى السلطان نور الدين زنكي، الذي سيرهم بدوره إلى الخليفة العباسي

---

(101) William of Tyre, A History of Deeds Donse Beyond the Sea: 2/ 307.

(102) قوام الدين الفتح بن علي البنداري ، سنا البرق الشامي ، تحقيق: رمضان ششن (بيروت ، 1970) : 90/1؛ W.B. Stevenson, the Cruseders in the East (Cambridge, 1963), p. 201.

(103) استار جيان، تاريخ الأمة الأرمينية، ص 215؛ Elisseff, Nur Ad-Din: 2/656

(104) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر الجزري، حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان (بيروت: 1988)، ص 276؛ المفضل بن أبي الفضائل ابن العميد، النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد (باريس: 1932): 2/ 231.

المستضيء بالله[105]، فخلع نور الدين على الأمير مليح مقابل ذلك وأخبره بأنه سير الرسل إلى بغداد ليعلم الخليفة بأمر مليح ويقول له: (إنه من غلماني، وهو كبير الروم) واقطعه سيس، ومنذ ذلك الوقت تولى مليح نيابة قيليقيا عن نور الدين زنكي[106].

كما شارك الأمير مليح مع نور الدين في حروبه ضد الصليبيين في سنة 565هـ/ 1169م واستولى على مرعش وبهسنى وكيسوم ورعبان وصالح على قلعة الروم [107] مقابل خمسين ألف دينار جزية ثم عاد نور الدين إلى حلب[108]. وبوفاة نور الدين سنة 569هـ/ 1173م فقد الأمير مليح حليفا وسندا قويا له[109]، ويمكن الاستدلال على ذلك من حادثة قتل الأمير مليح في السنة ذاتها على أيدي أعدائه ومنافسيه، إذ لم يبق من يخشوه بعد وفاة السلطان نور الدين زنكي.

وفي أعقاب مقتل الأمير مليح تولى السلطة ابن شقيقه الذي لقب باسم روبين الثالث (571-582هـ/ 1175-1186م) الذي عقد حلفا مع الأمراء

---

(105) ابن واصل، مفرج الكروب : 1/ 235؛ محمد بن علي أبو الفضائل، التاريخ المنصوري (موسكو: 1973)، ص 180؛ Cambridge Medival History: 2/ 235

(106) البنداري، سنا البرق: 1/ 231؛ أبو الفلاح عبدالحي ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (بيروت: د/ ت): 4/ 225.

(107) قلعة الروم: وهي قلعة قديمة أطلق عليها فيما بعد اسم قلعة المسلمين وهي من جند قنسرين في البرالجنوبي الغربي من نهر الفرات من الجهة الشمالية الغربية من حلب إلى الغرب من البيرة وهي من القلاع الحصينة ومعظم سكانها من الأرمن. ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى: 8/ 124.

(108) البنداري، سنا البرق: 1/ 137-138؛ أبو شامة، الروضتين 1/ 215، ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية في السيرة النورية (بيروت: 1971)، ص 221.

(109) رنسيمان، تاريخ الحروب، 2/ 675.

الصليبيين، وهاجم معهم حصن حارم بما يقارب ثلاثين ألف فارس، واستولوا عليها في سنة 573هـ/ 1177م، إلا أن سوء معاملتهم لسكانها كان سببا في تسليم الحصن إلى السلطان الصالح بن نور الدين زنكي في السنة ذاتها (110)، وقد كان هذا الحصن تابعا له قبل مهاجمة الأمير روبين الثالث للحصن، وبهذه الحادثة تتوقف المصادر التي بين أيدينا عن ذكر أية معلومات عن العلاقة بين الأرمن والزنكيين.

Abstract

The Political Relations Between Armeenia Minor Kingdom and the Neighbouring Islamic States

Dr. All'a Mahmood Kadawy (*)

The study deals with the relation between Armeenia kingdom and Islamic powers. It tsckles the political conditions of Armeenia in the second half of the Fifth Century-Hijra./ The Eleventh Century. They immigrated from their origin places to Qilikiya. They established their Imara

(110) تاريخ الرهاوي المجهول: 2/ 218-219.

(*) Department of History - College of Arts / University of Mosul.

which was known as Minor Arminia kingdom. Because of its situation between Mosul, Jazirra and Syria, it had political relations with the Islamic powers such as Saljuki, Danishmandi, Aratika and Zankis.

Others such as Bizantiz and Crusaders had a role in directing such relation which was almost unfriendly, with the exceptions in some periods with some Armenian leaders. They made allies with some Moslims powers to oppose personal demands of crusade Ameers in Qilikiya.